

ماذا رأينا

في هذه الحرب الدامية ؟ . . .
بقلم الأستاذ عيسى متولى

خمس سنوات والعالم يصلى نارا حامية، أبحجتها حرب ضروس لم يشهد التاريخ البشرى أشد منها دولا وقسوة، ولا أروع منها نضالا وعتقا . . . فلم تسلم من شرها المستطير أمة من الأمم، ولم ينبج من شررها المتطير شعب من الشعوب ! . . .

واقدر رأينا في هذه الحرب صورا كثيرة وألوانا شتى، فشاهدنا صراعا عنيفا بين المبادئ السياسية المختلفة، فصارت الديمقراطية والشيوعية ضد الدكتاتورية والفاشية، فكان هذا الصراع العنيف بمثابة اختبار لأصلح المبادئ وأحقها بالبقاء .

وشاهدنا مصرع الأمم المستهتر، ومصير الشعوب التي صرفتها الملمات عن نواحي الجذ، وتفترقت كلمة زعمائها وقادتها، واهبت الحياة دورا في تاريخها، وتداعت صروح الأخلاق والفضيلة بمعاول الهدم والتقويض، فانهارت الأمة بأسرها . وانهار مجدها التليد بين عشية وضحاها .

ولمّا الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وشاهدنا معجزات العلم الحديث . وما تمتعت به أذهان العلماء والمفكرين في القرن العشرين من مخترعات يكاد العقل لا يصدقها، فقد توصل العلماء إلى اختراع أقراص صغيرة يزردها الحديد في الميدان تغذيه غذاء كاملا يساعده على مواصلة القتال، وشاهدنا المعدات الحربية العجيبة . كالطائرات اللاسلكية التي تستعمل دون حاجة إلى طيارين، والقنابل التي تنفجر في وقت معين، والقواصات ولاقطات الأنغام والطوربيدات البشرية والمناطيد والمظلات والأسنحة السرية التي نقلت إلينا البرقيات بعض أنبائها، ولو أن تفكير هؤلاء العلماء المحتمدين اتجه إلى نواحي الخير لاستفادت البشرية من تلك المخترعات الشيء الكثير، فلو أنهم وجهوا هذه الجهود الجبارة نحو اختراع يقصى على جرائم الأمراض والأوبئة التي تفتك بالبشر . أو يساعده على استئصال الأدواء التي يذهب ضحيتها الآلاف في كل عام، أقول لو أن هذه الجهود وجهت وجهة الخير لخدم العلماء الإنسانية أجل الخدمات، ولأدوا رسالة العلم على وجهها الأكمل .

وهناك من يقول إن العلم جنى على البشرية بما توصل إليه العلماء من مبتكرات علمية استعماوا بها في هذه الحرب، والواقع أننا ننظم العلم حين نحمله تبعه هذه الشرور، وننسب

إليه تلك التهم ، فالعلم لم يعن على البشرية كما يزعمون ، ولكن البشر أنفسهم استغلوا العلم في نواحي الشر ، وأساءوا العمل بما هداهم إليه العلم ، فاخترعوا معدات التخريب والتدمير فلم يظلم العلم البشرية ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

وكل شيء لا يحسن استعماله يستفحل خطره ، فمخترع لقاطرة مثلاً لم يخترعها لتهدم الناس وتقضى على حياتهم ، إنما كان هدفه حين فكر في اختراعها خدمة المجتمع بتقريب المسافات وتيسير سبل النقل ، فإذا أحسن القائد قيادة القاطرة أمكده الاستفادة بها ، وإذا لم يحسن استعمالها كانت نقمة عليه وعلى من معه وعلى كل من يصادفه .

وانفقت الأمم المتحاربة الملايين من الجنيتات في سبيل لتسلح . ولو أن هذه المبالغ الطائلة أنفقت في أبواب الخير لم وجدنا على وجه الأرض فقيراً يقاسى شظف العيش ، ولا مسكيناً يتصور جوعاً ، يعاني مرارة الفاقة والحرمان ...



وشاهدنا خدع المتحاربين وتفنتهم في اقتناص الفرص للإيقاع بخصوصهم في المنازق المرحجة استفاداً لقواهم ، ورأينا معاهدات تنقض ولما يجف مدادها ، ووثائق يلقي بها عرض الحائط ولا يقام لها وزن ، فكانت العلبة للقوة وحدها ، وحق لنا أن نفخر نحن المصريين باحترامنا لليهود والمواثيق وتقديسنا لها ، فقد قامت مصر بتعهداتها كاملة غير منقوصة ، فكانت موضع إعجاب الأمم جميعاً ، وشهد بذلك أقطاب الساسة والزعماء ، فكان موقفها موقف الحليفة الوفية المخلصه .

ورأينا أمماً بأمله تذود عن حريتها واستقلالها ذود المستعيت عن حياضه ، وتؤثر الموت على تسليم شبر واحد من أرضها ، فاشتد القتال في شوارعها بل وفي بيوتها ، لم يرضها الجهاد ، ولم يفت في عضدها الوهن ، فصمدت أمام القوة تقابل النار بالنار ، وأتقوة بالقوة ، لا تتزحزح ولا تتزلزل ، بل تزيد الخطوب حماساً وقوة ، بينما رأينا أمماً أخرى رضيت بالذلة والاستعباد ، فعمدت إلى التسليم والخنوع للقوة . وخرت مستسلمة ، خاضعة ، ذليلة ...

وأى موت أخرى من هذا الانهزام ؟ ! ...

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جباناً

ولعبت الجاسوسية في هذه الحرب دوراً خطيراً ، واستخدم الأثير في إرسال واستقبال الإشارات والأوامر العسكرية ، فكان خادماً أميناً للتحريين .

وعقدت الدول المؤتمرات الكثيرة لتنظيم العالم بعد الحرب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً فعقد مؤتمر سيامي في واشنطن ، وعقد مؤتمر الأغذية في أمريكا ، وعقد المؤتمر المالي

في القاهرة ، وعقد مؤتمر النقد في أمريكا ، وأخذت لكل دولة تنظم جهودها وتضع برامجها الإصلاحية لما بعد الحرب .

”

هذه نظرة عاجلة إلى ما يجري في العالم اليوم من أحداث بوجه عام ، نعود بعدها لننق نظرة خاصة إلى ما يجري في بلادنا ، وما شاهدناه في أيام الحرب ، ومدى تأثيرها ، وإن كنا — والله الحمد — أقل الشعوب تأثرا بها ...

فن الظواهر الاجتماعية السيئة التي شاهدناها تحكم الجشع في النفوس تحكما أنساها كل شيء ... أنساها حق الله وحق الوطن ، وأعمالها عن كل غاية إلا جمع المال ... فرأينا قوما أثروا ثراء فاحشا ، لم يعملوا في يوم من الأيام ... امتصوا دماء الشعب ، واخترنوا أقواته . وفرضوا عليه الأسيار فرضا ، والشعب المسكين يخضع لتحكمهم الجائر تحت وطأة الحاجة ، ومع أن القانون حارب هذا الجشع إلا أنهم عمدوا إلى التحايل على القانون بشتى الطرق والوسائل ، استعادة في الربح ... الربح الحرام الذي يستزفونه من دماء الشعب ! ...

ونهبوا في التحايل على القانون والأوامر العسكرية طرقا كثيرة ، أسوق أمثلة منها : حينما منعت الحكومة نقل الخبز والدقيق من العاصمة إلى الأقاليم رأينا بعض الناس يتقلون الخبز في نعش ، يشيعونه بالبكاء والعيول إلى الجهة المراد نقله إليها بعيدا عن أعين الرقباء وبيعه بأضعاف ثمنه ؟ ...

ولما أصدرت الحكومة أمرها بمنع إصدار الذهب عمداً بعض المصدرين إلى تغطية الذهب بطلاء من الفضة وإصداره تحت هذا الستار ، حتى إذا ما تم إصداره أمكن محو الطلاء الفضي ! ...

وحددت الحكومة أسعار الضروريات من مواد المعيشة منعا للتلاعب بها ، فعمد الكثيرون إلى إخفاء الأصناف التي تناولها التحديد الجبري ، ليهيها للمستهلكين بأضعاف ثمنها ، ولما لم ترفع الحكومة أسعار الزيت وأصدرت أمرها إلى المعاصر بمواصلة العمل ، عمد بعض أصحاب هذه المعاصر إلى فك آلاتها بحجة الترميم والإصلاح ! ! ...

وحددت الحكومة أسعار بعض الحاجيات على أساس ” الأفة ” فأبى بعض التجار إلا أن تكون وحدتهم ” القدح ” أو ” الرطل ” تحاشيا من قيود التسعيرة ! ... ولا يتسع المجال هنا لسرد كل أوامير هذا التحايل الذي لجأ إليه التجار طمعا في الربح ، وتخلصا من قيود القانون .

ورأينا بعض التصناعات الصغيرة وقد انتعشت سوقها بسبب ظروف الحرب وانعدام المنافسة الأجنبية لها ، والذي نرجوه هو أن تلتق هذه الصناعات الوطنية من عنايتنا وتشجيعنا ما يكفل بقاءها وازدهارها . فإذن في إحيائها إحياءا لمجدنا الصناعي ، وتدعيمها لصروح استقلالنا لاقتصادى .

وفتحت الحرب أبواب الكسب أمام عدد كبير من العمال المصريين ، فاستفاد هؤلاء العمال بالأجور الكبيرة التي يتقاضونها ، ولكنهم لم يقتصدوا من هذه الأجور ما يقيمهم شرور البطالة ، رغم أنهم ذاقوا مرارة التعتل ووعاة الحرمان . . . فازدحمت بهم دور السيئ والملاهي ، وأسرفوا في الإنفاق إسرافا بعيدا عن الحكمة . ولم يحسبوا للغد حسابه . . .



وجنت الحرب على كثير من فتيات الأسر الفقيرة . أغراهن بريق المال وهن المحرومات طول لعمر من المال ، ودفع بين إلى طريق الغواية فاشغلن حاملات في البارات ودور اللهو وارتدين أنفرا الثياب ، وقد أحصى مكتب حماية الآداب هؤلاء الفتيات بالمتأت ، ومن واجبتنا أن نفكر في مصير هذا الجيش الجرار من جنود الفساد الخلق . صيانة للأخلاق وحماية للآداب . . .

ورأينا فريقا معد ما ربح في هذه الحرب الأرباح الطائلة ، وغدوا من ذوى الثروات ومما سمعناه في بعض المجالس أن رجلا ربح آلاف الجنيهات من بيع القوارير الفارغة !! .. أما الموظف فهو البأس حقا ، إذ عانى مشاق الغلاء ، وجشع التجار والقصابين ، فكانت طائفة الموظفين أكثر الطوائف تأثرا بالحرب ، وكانت الوطأة على كاهلهم ثقيلة ! . . .

ورأينا الصحف وقد قلت صفحاتها وضائق أعمدها . لا تنشر إلا الهام من أنباء الميادين ، والمهم من الأنباء الداخلية ، وقد أظهر البعض ارتياحه إلى هذا الاقتصار الذي دعت إليه ظروف الحرب ! . . .

ومن الظواهر الاجتماعية الطيبة التي شاهدناها هذا الاتجاه الجليل الذي اتجهت إليه سياستنا الإصلاحية : لتحقيق العدالة الاجتماعية في مجتمع المصرى ، ورفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ومحاربة الجهل والفقر والمرض ، وغير ذلك من المشاريع التي تحقق مطالبنا القومية . ووجدت فكرة "الوحدة العربية" أنصارا يؤيدونها ويسعون إلى تحقيقها ، وكلها جهود طيبة نرجو أن تكمل بالنجاح ، لتبوء مصر ، في العزم الجليل ، المكانة اللائقة بها ، وتبني ما تصبو إليه من عزة ، وسؤدد ، ومجد ! . . .

عيسى متولى
بنك مصر